الغرائز السيكولوجية الثلاث (١)

ايها السادة والسيدات ،

اقف لاول مرة على المنبر متسائلاً اين أنا ، فاذا بالاجوبة تتوارد في خاطري . أنا في نادٍ شرقيّ سوريّ جمع نخبةً من أبناء قومي . أنا في نادٍ يحيي السهرات العائلية والاجتماعات المأنوسة ، وينظم الرحلات التاريخية والزيارات المشوّقة والاسفار التي تروّض العقل والجسد جميعاً . أنا في نادٍ ان هو اهتم بحفلات السمر والطرب والانشراح لانها من خصائص الشباب ومن اسباب الهناء ، فهو كذلك لا يغفل أنبل وجوه الحياة فيعقدُ في قاعته هذه الوقت بعد الوقت اجتماعات جليلة غرضها البحث والمذاكرة في سبيل النهوض الفكريّ والاجتماعيّ

أقف على هذا المنبر وانظر اليكم . فأرى في مقدّمتكم آباءنا الروحيين ، وحضورهم هنا دليل على ائتلاف الانس والفضل اللذين هما في اتمّ وجوههما حليفان لا ينفصلان . وارى بينكم وجوهاً تذكّرني باني منذ شهور قلائل سرتُ في قافلة جمعت كثيرين من حضراتكم نساء ورجالاً . فجلسنا معاً الى مائدة واحدة ، والتقاسمنا بفعل اهتزاز الامواج الافراح والاتراح على ظهر الباخرة « جيانيكولو » التي كان الاب ابو حديد نقطة التشريفات المركزية فيها وكان مونسينور بيرو شاعرها الفريد و بلبلها الصدّاح . واشتركنا في غفرانات العام المقدّس ومشاهدة آثار روما وكاتدرائياتها ومتاحفها الخالدة . تذكارات هنيئة يريثة تزيد عذوبةً ونفاسة كلما طوى عليها الدهر يوماً من نسيج ردائه . فأنّى وجّهتُ نظري وفكري في موقفي هذا تلقّاني ما يقول لي بأني هنا لستُ بالغريبة . واذ أتهمُ باسداء الشكر إلى رئيس هذا النادي وأعضائه الكرام على دعوتهم اجد كلمات الشكر وقد انقلبت بين شفتيّ تحيّةً حارّةً ممّن تلقى نفسها في دارٍ هي دارها ، وبين قوم هم اهلوها

يخيّل ، ايها السادة والسيدات ، ان اندية القاهرة أجمعت في هذه الآونة على وجوب تدشين منابرها من الجانب النسوي . كانما هذا الجيل المتيقظ أصبح ، في لهوه وقلقه ، معطاشاً إلى أحاديث غير هذه التي حيكت كالاسطوانات منذ أجيال ودهور . كأنما هو

(١) خطبة القيتها الآنسة مي زيادة القيت في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية مساء الخميس ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦

أصبح توّاقاً إلى صوت جديد ينادي من على منابر الاندية ومنابر الطروس مشيراً الى نقطة من الحياة منسيّة . فما وقفتُ على منبر في هذه الايام الاّ وشعرتُ بالتفاف ارواح الجمهور حول روحي تمدّني بالقوّة والشجاعة ، وتوحي اليّ الكلمة المجنّحة المطلوبة . فترتفع تسعى بفعل هذا الوحي الى افق عالٍ حيث تتعرّف بذاتها قبل ان ترسل الوحي الفاظاً الى مسامع الحاضرين

ومع تقديري لهمتكم وعطفكم ، ايها الرجال ، فان اهتمامي بعطف النساء عظيم . أنتم اوقفتموني هنا . ولكن نظرةً الى النساء تروا ان كلاً منهنّ ترقبني لترى هل أنا أحسنُ القول كما كانت هي تحسنهُ مكاني ؟ وهل أنا افوز في التعبير عن آرائهنّ وافكارهنّ خلال موضوعي ليجوز لي ان اسئلهنّ المليلة امامكم ؟

فياسمكنّ يا سيداتي اقف هنا مدشنةً هذا المنبر للآتي سيرقينهُ من بنات هذا الجيل ومهدةً السبيل لبنات الاجيال التالية ان صحّ ان اوّل خطوة هي اعسر خطوة . واعلن اني على اهبة لكسر زجاجة الشمبانيا ليشكل التدشين جميع شروطهِ — على طريقة سادتنا الرجال — فلا يقبل بمدشّنٍ طعناً ولا نقضاً

اما زجاجة الشمبانيا فهي هنا رمزية . اي انها الخطاب الذي يظهر انهُ سيجمع بين ما فرّقتهُ الطبيعة . فمن المعلوم ان الذي يكسر زجاجة الشمبانيا يتغافل عن فتحها ، وان الذي يفتحها لا يفكرُ في كسرها . اما انا فسأفتحها اولاً وبعدئذٍ اكسرها ، فاكون محققةً مبدأ التناقض والجمع بين الضدين الذي يحبّهُ الرجال أن ينسبوهُ الى النساء

وفتح الزجاجة هو عبارة عن شرح عنوان الخطاب . لأنّ حضرة السكرتير الهمام اتحفني بمناقشة تليفونية ترمي الى تغيير العنوان . « فالغرائز » وصلت اليهِ الغرائب ، والسيكولوجية اقترح ان تكون بسيكولوجية ، أمّا كلمة الثلاث فسكت عنها منةً وكرماً . فالغرائز جمع غريزة ، يقابلها بالفرنسية كلمة "Instinct" من اللاتينية "Instinctus" سامحوني على هذه الكلمة الآتية رأساً من القاموس — ومعناها ما غرزت عليهِ طبيعة الانسان مما قد تكيّف مظاهرهُ وتتنوّع وتتطوّر ولكنهُ في صميمهِ اصلٌ راسخ لا يتلاشى . اما الثلاث فجمع ١ و٢ و٣ من الغرائز الاساسية التي أريد أن ألمع اليها . اما السيكولوجية فهي طبعاً مشتقة من كلمة Psychologie بالعربية علم النفس و بالانجليزية Psychology فاستعملت لفظها في العربية على الطريقة الانجليزية لاني لو جعلتها « بسيكولوجية » لانبرى لي استاذنا زكي باشا يحقّ وألقى عليّ درساً بأن الساكنين

بالعربية لا يتجاوران . وان لامني سعادتهُ ولتوفي حضراتكم لاستعمال السيكولوجية بدلاً من « النفسية » أجيبُ ان السيكولوجيا في اوربا ، بعد ان كانت فرعاً من الفلسفة النظرية وما وراء الطبيعة ، أصبحت منذ نصف قرن تقريباً ، لاسيما في الاعوام الاخيرة ، علماً منفصلاً منظماً قائماً بذاتهِ ترجع اليهِ جميع العلوم الاجتماعية والجنائية والتاريخية والعمرانية . فدرّس جوستاف لوبون سيكولوجيات الشعوب والجماعات والمهن ، ودرس علماء الاجتماع من الفرنسيين والانجليز والالمان والنمسويين والروس والطليان سيكولوجيات الامم والمراتب ، ودرس الاطباء الحاذقون سيكولوجية المرضى والامراض ، ودرس رجال الشرع والقضاء سيكولوجيات الجرائم والمجرمين ، حتى التاجر عمد الى سيكولوجية زبائنهِ يعالجها بالاعلان والترغيب ويسيطر عليها من اقرب جهاتها منالاً . وما ذلك إلاَّ لادراك هؤلاء ان العلاقة متينة بين الجسد وبين ما نسميهِ النفس ، ذلك الجوهر الغامض الكامن في الجسد والذي هو مصدر الاحساس فيهِ والحياة . كذلك لاحظ جميع هؤلاء ان الجماعات الخاضعة لاحوال واحدة ، المواجهة في الحياة تجاريب متماثلة ، لتكيف شيئاً فشيئاً في صورة واحدة وتتربّى فيها ملكات واحدة كوّنت مع الوقت « سيكولوجية » تلك الجماعة وأبرزت طابعها الخاص . ومن هنا عرفنا نفسية الجاني ، ونفسية العالم ، ونفسية الطبيب ، ونفسية المحامي ، إلى آخرهِ . ومن ثم اطلعنا على ما اكتشفهُ علماء الاجتماع ورسموهُ من سيكولوجيات الشعوب وما تشترك فيهِ فيما بينها او تنفرّدُ بهِ من الغرائز . ومن الغرائز المشتركة بين الجميع ، هذه الغرائز الثلاث التي هي موضوعنا وقد وصلنا اليهِ اخيراً من اطول السبل بعد ان ادّيتُ شبه امتحان أرجو ان اكون قد نجحتُ فيهِ ، وهو فتح زجاجة الشمبانيا التي جاء وقت كسرها

***

أيها السادة والسيدات

الغرائز الثلاث التي يشترك فيها الجميع مع بعض الاختلاف المحتوم بين الجماعة والافراد وفقاً لمزاج كلٍّ منها ، هي اولاً غريزة « الأنا » او الفردية ، والغريزة الوجدانية ، والغريزة الاجتماعية . وهذه الغرائز الثلاث هي محور الوجود البشري والاجتماعي وهي في تماسكها وتسلسلها السبيل المنطقي الوحيد للنمو والتطوّر والحياة

عندما نقول « انا » ندركُ إجمالاً ما تعنيهِ هذه الكلمة من تعريف الشخصية الواحدة وتعيين حقوقها الشرعية على الوسائل الضمينة بالوجود والصحة والهناء والحرية .

وهذه الوسائل هي في بادىء الامر من نوع الحاجة ، اي انها عند الطفل ، وعند الجماعات غير المتحضرة ، وعند الافراد العاديين ، حسيَّة كثيفة تكاد تقصر على مواد الغذاء والكساء والمسكن والوقاية والدفاع عن الروح وحب الانتقام والرغبة في السيطرة الفظَّة الخشنة دون دقةٍ ولا تنوُّع ولا صقلٍ

ثم تتولَّد في الفرديَّة صفات ونقائص وميول ورغبات وفروق بين المعاني والاشياء والاعمال والمدركات فيتوغَّل الفرد في عالم الفهم والشعور ، ويرقى صعوداً الى حيث يجابهُ معاني الحريَّة والعدل ، ويتمتع بالعبقرية فيخضع قُوى الطبيعة ويسيطر على العناصر ، وتتناوبهُ الانفعالات والمسرات والآلام والتجارب فتميتُ كلَّ يوم منهُ قديمًا وتخلق فيهِ جديداً . ولسنا محتاجين الى من يعلِّمنا حب انفسنا فذلك اعرق شعورٍ فينا وهو شرعيٌّ عادل مقدَّس . اقول انهُ مقدَّس ولا استدرك ، اذ اي شيء احقُّ بالاعزاز والتقديس من هذه الحياة التي تلقيناها من جود الباري ؟ واي عدلٍ اعدل من الاحتفاظ بها وصيانتها وانمائها واحترامها وحبها واسعادها ؟

وهذه الفرديَّة الصحيحة الحرَّة انما هي نسيج المجتمع ولا يكون المجتمع قويًّا عظيمًا الاَّ عندما تكون فرديَّاتهُ قوية عظيمة ، مالئةً كلَّ مكانها الطبيعيِّ . قلتُ كلَّ مكانها ، فحسبُ ! وربما علَّق كثيرون منكم على قولي بأن ما يشكو منهُ المجتمع الآن ليس تضاؤل الشخصية وانكماش الفردية بل نقيض ذلك ، اذ كلُّ فردٍ لا يرضى ان يكون اقلَّ من امة ، وكلُّ امةٍ لا ترضى ان تكون اقلَّ من الانسانية . وانا اجيب ان هذه هي الدمغة الدالة على ضعف الفردية . والاَّ فليجبني السادة الاطباء : عندما يتضخَّم القلب — او اي عضوٍ من الاعضاء الاخرى — ويطغى على الاعضاء المجاورة فيحتلُّ مكانها ، اهذا من الصحة ام من المرض ؟ ان معارفي الطبية قليلة ولكني اعلم ان التورُّم علامة المرض وتضاؤل الحيوية . وتضخم الفرديَّات هو هذا ما نمتنهُ ونسميهِ غروراً وحمقًا وطغيانًا وافتئاتًا . هي وضع النفس في مكان ليس لها ، وانتحال المرء ما ليس فيهِ ، وادعاء ما لم يخلق لاجلهِ . هي تجاوز حدود الفردية واغتصاب حقوق الآخرين التي يجب ان تكون حدوداً لحقوقنا والقوة التي يجب ان تهيِّب حيالها قوَّتنا . وعند ما نذكرُ التضحية والتفادي انما نعني في الغالب هذا الغرور ، هذا التضخُّم الذي لا بدَّ من بعضهِ عند كلٍّ منَّا . اما التنازل عن الحق الطبيعيِّ الصميم فلا يكون الاَّ طارئًا استثنائيًّا . اما التنازل عنهُ بتتابع واطِّراد فذلك مستحيل لان الفرد انما بذلك يجحدُ عطايا الباري فينكر نفسهُ ؛

ويتكر علة وجوده ، ويسرف في تبذير قوته الحيوية فما هو الاَّ المنتحر . ولو انكر كلٌّ نفسهُ في سبيل الآخرين لكان شأن الجماعات شأن من يبني البيت ابتداء من السقف ويجعل العرض يقتل الجوهر . التطوُّر في الطبيعة يبدأ من ادنى الكائنات الى اعلاها . والتطوُّر في الانسانية يبدأ بالفرد ، فالاسرة ، فالجماعة ، فالمدينة ، فالامة ، فالجنس ، واخيراً الانسانية . وارق ما ترمي اليهِ دساتير الامم وقوانينها هو الحرص على راحة الافراد واستقلالهم لانهُ السبيل الوحيد لسلامة المجتمع ونقدُّمهِ وهنائهِ

وحسبنا لاعلاء شأن الفردية ان نذكر تلك الشخصيات العظيمة التي ساقت العمران دهراً بعد دهر الى رقيهِ العلمي والاجتماعي والفكري والروحي . الغريزة الفردية اوجدت المكتشف والمخترع والمصلح والعبقري والقديس والرسول ، وكلاًّ من هؤلاء الذين ينيلوننا اجنحة ننهض بها من خمول الحياة المألوفة والمادة اليومية ، فنمضي نحو غايات المستقبل ورحبات الرجاء . بل حسبنا ان نذكر السيد المسيح الذي تجرَّد من كلّ رابطة بشرية ليظلّ فردية تورانية تسير في طريقها الى المجد ، الى الصليب ، الى الموت . وليس من ظرف تثبتُ فيهِ اهمية الفردية المطلقة كالموت . في الموت يترك الفرد الجميع والجميع يتركونهُ . وكما يموت المرء وحدهُ فكذلك يحيا وحدهُ صميم حياتهِ في الآلام والمسرات في النعمة كما في النقمة !

ومع نموّ الغريزة الفردية تنمو غريزة اخرى تلازمها ، هي الغريزة الوجدانية العجيبة التي ترجع اليها — خصوصاً — اسباب الشقاء والهناء . الغريزة التي تكيف الطبائع وتعين الشخصيات حتى انك لا تستطيع ان تتصوَّر المجد والجمال والعظمة والسعادة الاَّ بها ومعها بل لا تستطيع ان تفرّق بينها وبين النبوغ واعظم مواهب الانسان . فما تخيَّلت التفوّق في امريء الا وتوسمت لهُ شعوراً اقوى منهُ عند الآخرين ومن نسج اثمن واتمس من نسج عواطفهم . « الا المس قلبك في صدرك » ، يقول الفرد ده موسه في قصيدة من اجمل قصائده — « فهناك محراب العبقرية ! »

ما هو سرُّ العواطف يا ترى وما هي غايتها ؟ مثلاً لماذا يتعلَّق الفرد بأمهِ فيراها فريدةً بين الناس اجمعين ؟ لماذا تظلُّ شخصيتها مقدَّسةً في نظرهِ ، ايَّا كانت منها الشوائب والعيوب ، ويظلّ ذكرها ، حتى بعد مماتها ، يشجّعهُ ويعزّيهُ ويحبب اليهِ الحياة ويملأهُ الرأفة بالناس والاغضاء عن مساوئهم ؟

ألأنها حملتهُ في جسدها كما يقولون وغذَّتهُ بدمها قبل ان تغذيهُ من لبنها ؟ كلاَّ !

ليس للمرأة من فضل في ذلك ولا هي فيه مخيَّرة او متفرّدة . بل تشاركها في ذلك حشرات الارض ، ومنها من تضحي بحياتها في سبيل ذريتها وليس من يشكرها على ما تفعل

ألأنها أرضعتهُ وسهرت على راحته ومرّضته وهو ضعيف قاصر ؟ إن من المراضع والمربيات من يتمن بهذا مأجورات وهنّ ألقن لعملهن من كثير من الامهات

ألأنها تهيء لهُ وسائل العيشة وأسباب الراحة ؟ إنّ صاحب أيّ فندق يقوم بذلك نحو أيّ غريب مقابل دريهمات معدودة متفق عليها

إذن تحبّ الامّ لأنها والوالد تعمل وتقتصد وتجاهد وتدّخر لتنيل ولدها هذا المال الذي يزيل من سبيله جميع الصعاب ويفتح امامهُ جميع الابواب ؟ ولكن قد ينالُ المرء احياناً ألوفاً من الجنيهات عن طريق أوراق اليانصيب فلا يتعلّق بمدير المصرف وموظفيه ، وقد يظفر بالمال وراثةً من قريب مجهول تموت فيزيد مقتهُ لهُ بالاستيلاء على ثروته . فضلاً عن ان الابوين غير مخيَّرين في تنشئة ذريتهما ، بل هما مرغمان على القيام بنفقتها على قدر طاقتهما بحكم الحياة وحكم الاحوال وحكم القانون

والابن البار يحبُّ امهُ الصالحة وهي عاجزة مريضة فقيرة منبوذة من المجتمع فيسعى جهدهُ ليقدّم لها ثمرة عمله وينير حياتها بابتسامة التعلّل والرجاء

إذن ما هو سبب التعلّق الذي يدهشنا ؟ سببهُ أيها السادة والسيدات ، ان الأمّ الصالحة هي الرمز الأعلى والاصدق والابقى للحبّ ، وما قيمة اعمالها ومساعيها الاّ بما تفيضهُ عليها من تلك الروح المحبّة المحيية . ألا فلتزلزل الارض زلزالها ، ولتنفجر البراكين ، ولينتشر الجوع والوباء ، ولتنقضّ الصواعق ، وليكشّر المجتمع عن انيابه فيحكم على الجاني ببيتة العار ! ان الولد ليعلم دواماً وسط النوائب واليأس ان هناك قلباً يحبهُ ويشعر معهُ ويلتمس لهُ الأعذار ، ويظلل عارهُ وألمهُ واندحارهُ بجناح العطف والمحبّة والغفران ، وذلك هو قلب امّه . من اجل ذلك فقط تحبُّ الأمّ ولقدّسها ويجعلها سيداً الحبّ على الارض وفي السماء !

ولذلك نشفق على اليتيم الذي ليس لهُ مثل هذا الكنز الذي لا يثمن . واوجع من اليتم عن طريق الموت اليتم الذي تحكم به الحياة . أي عند ما تكون الأمّ والدةً ليس الاّ ، لا تشعر بعواطف الحنان ، ولا تدرك ما هو مجد الامومة ! يقولون « الدنيا امّ » وفي ذلك عين الصواب . فان الذي علّمهُ امهُ بعطفها وحصافتها الثقة يكون في الحياة عريقاً اصيلاً . وأمّا اليتيم لنقص الامومة عند والدته فيرى الدنيا حيّةً رقطاء تنقلب حواليه لتغدره وتردیهُ !

ومن حبّ الامّ تتطوّر العواطف فتشمل الاب والاخوة والاخوات والاقارب

والمعارف ، حتى اذا شبَّ الفرد واتضحت ميولهُ لم يرضَ بالذين يسايرونهُ بحكم الرابطة الدموية والقرابة ، بل اختار اصدقاءهُ وعشراءهُ واحباءهُ من الذين يشاطرونهُ ذوقهُ وميولهُ وافكارهُ ، او من الذين يتوسَّم لديهم ما يرفعهُ و يصقلهُ و يجعل عندهُ للحياة قيمة غير ليتها المألوفة . ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بلا حبٍّ وحنان ؟ وايُّ شخصية تعظم وتعلو ان لم يكن لها عين الحبِّ ترقبها ، وبسمة الحبِّ تغذيها ، وتلك العناية الرقيقة ، وذلك الوحي الفيَّاض الذي لا يصدر الاَّ عن القلب الدافق بالحبِّ والحنان ؟

ومن الغريب ان ما نسمّيهِ اخلاقاً طيبة وشيماً كريمة ، وحكمة واستقامةً وصدقاً ووفاءً وعزَّةً وإباءً وذوقاً وفصاحة ، كلُّ ذلك ليس بناتج عن العقل والذكاء ، بل كلُّ اولئك اشعة شمس افقها القلب الكبير الحساس

وهنا كذلك الصحة يهدّدها المرض لان كلمة الحبِّ في بعض دوائر المجتمع لا تعني في الغالب الاَّ العواطف الشاذَّة المعربدة والفوضى في السلوك التي لا يعرف بعض الناس غيرها ولا يتصوَّرون ان النور غير الاوحال ، فيكون اسم الحبِّ والعاطفة في شرعهم مرادفاً لمعنى التقهقر الاخلاقي . ولكنَّ اوَّل شرطٍ عندي لتقدُّم الشخصية وارتفاع النفس هو سموُّ معنى الحبِّ في تلك النفس وتقديس جلال العاطفة !

وتشعُّ القلوب بالحب وتثمر الشخصيات فتحتاج الى الخروج من ذواتها كالبذرة تشقُّ نفسها وتشقُّ الارض لتبرز حياة على العالمين . عندئذٍ تبدو الغريزة الثالثة ، الغريزة الاجتماعية التي تبتدئ بعد الغريزة الثانية قليلاً . وتظلُّ في نموٍّ واتساع وانتظام طول الحياة ، باساليب تتوافق والمجتمع الذي تعيش فيهِ وتخضع لانظمتهِ

تذكرون تلك الكلمة القديمة التي قالها ارسطو ليعرِّف ابناء عصرهِ ووطنهِ ، قال الانسان حيوان سياسي . ومرَّت القرون فاذا بفلتون يعرِّف اهل فرنسا في عصر لويس الرابع عشر فقال : الانسان حيوان اجتماعي . وكلاهما صادق في تعريفهِ لانَّ الانسان حيوانٌ سياسيٌّ واجتماعيٌّ في آنٍ واحد

من ذا يستطيع ان يعيش بلا اصدقاء ومعارف وايُّ الاعمال يمكن ان تقوم وتنجح بدون اشتراك في المصالح وتبادل في الاخذ والعطاء ؟ ان كلَّ بأس السجين في وحدته ، والسجن الانفراديَّ الذي استبدلت بهِ ايطاليا الحكم بالاعدام على كبار المجرمين وسفاكي الدماء ، يفوق جميع صنوف الموت قساوةً وعذاباً . ايها الغربال ! كم من مرةٍ انالتني اصواتكم التعزية ، وكم من مرة استقيت الشجاعة وحبَّ الحياة من ابتساماتكم ونبرات اصواتكم !

وكم من مرة بأركتكم لذلك وانتم لا تعلمون !

ان اول دوائر المجتمع للطفل هي عائلته وعائلة امه وابيه ، فالمدرسة ، فاهل مهنته ، فأهل مرتبته وذوي العلاقات بمصالحه الاجتماعية ، والمالية والوطنية والقومية ، الى آخر ما هنالك . فهذا المجتمع الذي ينشر لنا منذ نعومة اظفارنا جماله ودمامته ، و يقيم سبلنا العراقيل كما يمهد لنا السبيل ، و يقسرنا على المثابرة والعمل والجهاد وحفظ النظام ، و يبيلنا وسائل التعزية واللهو والسمر والانشراح ، هذا المجتمع هو كالمادة ، كالهيولي ، في الظاهر اصل كل شيء واليه مرجع كل شيء . لا تعزية ولا حياة لمن يعيش وحده . ان الغريزة الفردية تقوّي المرء وتسلحه ولكن الغريزة الاجتماعية تصقله وتنمّي زواياه الحادة . والذي يستطيع ان يرضي و يجذب الناس اليه ، فذاك بلا ريب سعيد وموهوب . بين هؤلاء الغرباء نكوّن منّا اخ خير من كل اخ ، وصديق وحبيب يبادل وسائل الحياة ومنافع الوجود . ولكن لا ننسين ان الرتبة الاجتماعية لا تكفي لتبرير المخالطة وتوليد المحبة والميل ، وكلما ارتقى المرء بأفكاره وعواطفه زاد تصعباً في اختيار اصدقائه وخلصائه . لذلك قالوا ان اصدقاء المرء أدلّ الدلائل على اخلاقه وميوله ، حتى اننا نجد في كل لغة من لغات العالم مثلاً يقابل هذا المثل العربي الجميل : « إنّ الطيور على اشكالها تقع »

وناديكم هذا ، يا اهل النادي ، من تلك الدوائر الاجتماعية الصالحة المفيدة التي هي كالحياة نفسها جامعة بين الفضل واللطف ، بين الجد والسمر . واسمحوا لي في الختام ان أتمنى ان ارى على مقربة منه ناديًا آخر مثله للسيدات ، تتمّ من حيث الاندية المساواة للرجال والنساء

***

أيها السادة والسيدات

ترون ان الموضوع كاد ينتهي ، وانه كان عليّ ان اغادر هذا المنبر شاكرة لكم دلائل عطفكم وانتباهكم وحسن إصغائكم . ولكن حضرة مرشد هذا النادي الاب الجليل ثيوفانوس شارل ، قال لي عند ما شرفنا بزيارته لتتذاكر في شأن هذه المحاضرة والموضوع الذي يحبّ حضرته ان اكلمكم فيه ، وبعد الثناء عليكم جميعاً والشهادة بأنكم راقون ناهضون ، قال لي : أيًا كان الموضوع الذي تختارينه ارجو ان تفتحي منه ساقية صغيرة فتقولي . . . فتقولي كذا وكذا ! وأنا أريد ان أعرب عن احترامي وطاعتي للاب الجليل ، ولكني لا أريد ان اغضبكم . فهل توافقون حضراتكم على ساقية أبينا ؟ أخطركم

بأن الموضوع موضوع انتقاد ، فهل تقبلونهُ سلفاً ؟ وهكذا بعد أن فقئنا زجاجة الشمبانيا في العنوان ، وكسرنا الزجاجة في المحاضرة عن الغرائز الثلاث ، ها نحن نفتح ساقية أخرى شارّ

لقد شاءت الطبيعة ان يكون لكل فصيلة من الكائنات ، وكل جماعة من الناس طابع خاص لا يقيّد حريتها بل بالعكس يوسعها و يطلقها في أرحب حدودها الممكنة على ان تستبقي لها شبه وجه وشبه هيئة . ففي الولايات المتحدة مثلاً ، عشرة ملايين من الاصل الالماني اعتنقوا نهائياً الجنسية الامريكية واندمجوا الى الابد في الامة الامريكية بحكم ظروفهم ومصالحهم ، وهم رغماً عن ذلك ما زالوا يتمرّنون اللغة الالمانية مع لغة البلاد الامريكية وهم الذين بتفوذهم اخرّوا الحكومة الاميركية مدّة ثلاثة اعوام عن خوض الحرب الى جانب الحلفاء . كذلك اذكروا الالزاس — لورين فان الوحدة الفرنسية عند اهلها ظلّت عنيدةً متعصّبةً لأصلها ولغتها الفرنسية مدة نصف قرن ، رغم السيطرة الالمانية ورغم ما كانت عليهِ من رخاء مالي . بل اذكروا ما تراشق بهِ في الاسبوع الماضي من الخطب السنيور موسوليني الطلياني والمرّ اشترمان الالماني بشأن الاقليات ذات الاصل الالماني التي سلختها ايطاليا من النمسا . ايطاليا — ككل دولة غالبة — تريدُ ان تصبغ تلك الاقليات بصبغتها . وتلك الاقليات ، ككلّ جماعة قوية الحيوية — تريد ان تحتفظ بقوميتها الاصلية ولغتها ومشاربها وعاداتها

ان الجماعات الصغيرة التي يسميها القانون السياسي « اقليات » مهما خضعت للتطوّر العام واقتبلت جميع وسائل الرقيّ العمراني ، فانها تحتفظ بالحنين القديم الى لغتها واصلها ، تلتفت الوقت بعد الوقت الى ماضيها السحيق ، الى الارض التي احبّها الآباء والجدود ، وجدود الجدود ، الى الازياء التي ارتداها السلف القديم ، الى الكلمات التي اعربوا بها جيلاً بعد جيل ، عن آلامهم وافراحهم وأملهم و يأسهم . وفي ذلك جوهر نسيجها الذي يزيد مع الوقت قوة وجمالاً بانضمام العناصر الجديدة المنجوبة اليهِ . وتعلمون يا سادتي ، اننا نحن ضعفاء جداً من هذا الجانب مع اننا نكن مصراً حاضرة الشرق الادنى اليوم ، وعاصمة النزعة الشرقية الصميمة ونعيش على مقربة من اخواننا المصريين المتمسكين بقوميتهم ، الذين يعطوننا كل يوم من شرقيتهم العريقة مثالاً جميلاً

نحن في ذكائنا ، من اسرع الشعوب اقتباساً ومن اكثرهم إلقاناً للتقليد . ولكننا مع الاسف من أقلهم حرصاً على ذخيرة الماضي وعلى ما يجب ان نحتفظ بهِ لتكوين شخصيتنا الجديدة . نحن من أقلّ الشعوب غيرةً على ثروتنا التبيلة ومن أقلهم اهتماماً

بلغتنا العربية الجميلة . لنا على ذلك أعذار اعرفها وافهمها ، ولكني أجاهر بأنها لا تكفي

نصغي إلى احاديث جماعاتنا رجالاً ونساء فاذا بهم يتكلمون لغات الاجانب كأبنائها ، ولكنهم يسيئون لفظ العربية ويفاخرون بأنهم يجهلونها . نذكر رجالنا فاذا بهم يدعون ادمون وفرنند وهنري ويجب ان تنقش على نور المصباح لنجد من يدعى سلمى وحبيباً ونجيباً وخليلاً . والبنات اسمهن هورتانس وروز و بلانش وفوتا ونينا الى آخره ، وليس من تُدعى ليلى ونجلا وسلمى واسمى وميًّا وهنداً . بيننا المتفرنس والمتنكاز والمتطلين والمتأمرك والمتألمن ، الى غير ذلك ، وليس بيننا المتعرّب والمتشرّق

فهذا هو ما اريد ان ألفتكم اليه لتكون ساقية ايبنا ثيوفانس الدلتا التي يصبُّ فيها نهر الخطاب — ان جاز هذا التشبيه — في بحر الانسانية : كونوا شرقيين قبل كلّ شيء !

تعلّموا ما شئتم من اللغات ، ولكن عزّزوا لغتكم اولاً ! تعلموا فنون الشعوب وعلومهم واطّلعوا على اكتشافاتهم ومعارفهم ولكن اذكروا ما سبق اليه قومكم من المعارف والفنون والعلوم ! انشدوا اناشيد الغرب وارسموا رسومهُ ، واعزفوا على آلاته ولكن لا تنسوا الناي والعود وأبا الزلوف والعتابا والميجانا ! استشهدوا بمفكري الغرب وبشعرائه وكتابه وحكمائه وترنموا بشعر هوغو وموسيه ولكن لا تجاهلوا مثلاً ديوان خليل مطران

يوم يقول الغربي أنا ابن الغرب ، قولوا : وانا ابن الشمس ، لغتي اللغة العربية ، وقوميتي القومية الشرقية . وان كان في هذه القومية إبهام وتفكك واضطراب ، فاني افاخر بطرح صوتٍ واحدٍ في سبيل تعزيزها وتوطيدها ، افاخر بأن اكون حلقةً في سبيل حبكها ، افاخر بأن اكون لساناً يردّد الفاظاً من مفردات لغتي فيوسعها إنعاشاً وحياةً

قولوا : اني جيل جديد وأريد قوميةً جديدة حرّة نبيلة ، رغم الآلام والمعاكسات والمصاعب !

اقتبسوا ما شئتم من خيرات العمران ولكن اسكبوها جميعاً في قالب الشخصية الشرقية فتكونوا عاملين على إيجادها فتنتسبوا إليها في اقطار الشرق والغرب فتباهوا ولا تخجلوا

انمو غرائزكم الثلاث غرائز الفردية والوجدان والاجتماع ولكن على ان تطوّر جميعاً في وحدةٍ شرقية مهذّبةٍ كريمةٍ لا تظلّ عالةً على الشعوب تعيش من فضلات ما تقتبسهُ عنها ، بل تجاهد لتقوم بذاتها وتقف على قدميها دون ان تجيل الآخرين ، بل تعطيهم كما تأخذ منهم وتتعاون وإيّاهم على تكوين جوقةٍ انسانية بديعةٍ في مسرح العمران العظيم !

« ي »